**المحاضرة الثانية:**

## دوافع الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية

لقد تهاوى الحكم الإسلامي بالأندلس وتم القضاء عليه بعد الصراع الإسلامي النصراني في نهاية القرن ١٥م حيث تشجعت إسبانيا في نقل صراعها إلى سواحل الدويلات الإسلامية في شمال إفريقيا وقد ساعدها في ذلك الظروف الصعبة التي كانت تعيشها هذه المناطق من تفكك وانحلال وصراعات داخلية. وهو ما سهل عملية احتلال أغلب سواحل شمال إفريقيا مع بداية القرن ١٦م وكان من وراء ذلك مجموعة من الدوافع يمكن حصرها في النقاط الآتية:

١- **الدوافع الدينية:** اكتست الحملات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط صبغة دينية ورغبة جامحة في محاولة تنصير المسلمين، ويدخل ذلك ضمن الطموح المسيحي والحقد الصليبي الدفين الذي ظل حيا في نفوس العديد من رجال السلطة الدينية والدنيوية منذ الحروب الصليبية في المشرق لينتقل إلى بلاد المغرب انطلاقا من إسبانيا التي كانت لها رغبة في التمسيح والتنصير ونشر المسيحية ومقاومة الإسلام، ولتحقيق ذلك شنت حملات واسعة وشرسة ضد المسلمين وجاء ذلك بعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢ واعتبرت ذلك تكملة لحروب الاسترداد المسيحية في شبه الجزيرة الإيبرية (Reconqusta)، ولتحقيق ذلك أصدر البابا أمره لكل المسيحين بضرورة الاستمرار في دفع الضريبة الصليبية (Crusada) لملوك إسبانيا من أجل دعم الحروب الإفريقية، وعلى هذا الأساس جمع القساوسة والرهبان أموالا باهضة في سبيل تحقيق ذلك بل أنهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة بغية تزويد الجيوش المسيحين بالمال والعتاد. أما الملكة إيزابيلا Isabila فقد

استجابت للدعوة وتركت لابنتها "جين" وزوجها "فليب"وصيةتأمرهما فيها بفتح إفريقيا وضرورة محاربة المسلين أينما وجدوا.

٢- **الدوافع السياسية:** كانت الدوافع السياسية من أهم أسباب الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط، حيث كانت للمملكة الإسبانية أطماع توسعية خاصة بعد شعورهم بالعظمة بعد توحيد بلادهم وطرد العرب المسلمين منها الأمر الذي شجعهم للتطلع خارج حدودها من أجل تشكيل إمبراطورية مسيحية مترامية الأطراف وتحقيق طموحاتها التوسعية، وهذا لن يتحقق إلا بإحكام سيطرتهم على سواحل الشمال الإفريقي، وقد ساعدهم في تحقيق مشاريعهم التوسعية الضعف والانحلال الذي عرفته المنطقة.

٣- **الدوافع الاقتصادية:** عرفت إسبانيا تراجعا رهيبا في اقتصادها بعد طرد المسلمين واليهود من أراضيها الذين كانوا يشكلون العمود الفقري لاقتصاد بلاد الأندلس فبرحيلهم تعطل الإنتاج وتدهور اقتصادها، ولم تجد أمامها سوى العالم الخارجي الذي تطلعت إليه ووجهت أنظارها الثاقبة إلى دويلات المغرب الإسلامي خاصة بلاد المغرب الأوسط الذي كان يعرف ضعفا وانحطاطا في جميع المجالات.

لقد كان لملوك إسبانيا رغبة جامحة في احتلال المنطقة كونها تتمتع بخيرات كبيرة ومتنوعة سواء أكانت معدنية أم طاقوية وزراعية بالإضافة إلى موانئ هامة ساحلية ذات مواقع استراتيجية والمرافق والمخابئ المنتشرة على طول سواحله فهو يعد مركزا هاما للتجارة والتبادل الاقتصادي فكانت إسبانيا تطمح في السيطرة عليها من أجل تقوية تجارتها الخارجية وتأمينها وتنمية اقتصادها وحماية طرق مواصلاتها مع جزيرة صقلية التي كانت تزودها ببعض

المنتوجات الغذائية كالقمح مثلا، بالإضافة إلى تأميم خطوط مواصلاتها الهامة من إسبانيا وإيطاليا لاتخاذ من القواعد الأمامية منطلقا لغزو المناطق الداخلية.

كما كان لتأمين طرق المواصلات دورا بارزا في تحريك عملية الغزو بهدف الوصول إلى مستعمراتها في مناطق مختلفة من أجل حماية ممتلكاتها والمحافظة على مصالحها الحيوية واستخدامها لمحطات تجارية هذا بالإضافة إلى أن شبه الجزيرة الإيبيرية بعد الاكتشافات الجغرافية أصبحت في أمس الحاجة إلى أسواق جديدة تستوعب تجارتها وإلى ثغور متعددة تحمي أساطيلها المثقلة بالحمولة.

٤- **الدوافع الاستراتيجية:** يتمتع البحر الأبيض المتوسط بأهمية خاصة فهو يعتبر أكبر البحار حول العالم (من البحار الداخلية)، يقع عند ملتقى ثلاث قارات كبيرة حيث يربطها ببعضها البعض (آسيا، إفريقيا، أوروبا) حيث يكتسب أهمية جغرافية واقتصادية وحضارية كبرى فهو مهد للعديد من الحضارات الراقية (أمازيغية- يونانية- فينيقية- رومانية- عربية وإسلامية) حيث يجمع عدد من القوميات واللغات والثقافات ويعتبر حلقة وصل بين أجزاء العالم المختلفة وشعوبه.

كما يمثل أهمية كبيرة في النقل البحري الدولي وذلك من خلال مضايقه وقنواته الهامة، لذلك نجده قد لعب دورا كبيرا في اقتصاد البلدان الساحلية، فهو يقع في مكان استراتيجي مهما للعديد من الدول الأوروبية خاصة إسبانيا التي سعى ملوكها إلى احتلال مدنه الساحلية لاتخاذها قواعد بحرية تستفيد منها سفنهم في الإبحار للوصول إلى أهافها التوسعية.

وكان هدف الاحتلال الإسباني للمناطق الاستراتيجية في الجزائر هو

مراقبة السفن المارة بالمياه الإقليمية للبحر الأبيض المتوسط والتوسع في المغرب الإسلامي وحماية نفسها من أي عدوان قد يكون مصدره المغرب بحكم قرب المسافة بين المنطقتين.

**الاحتلال الإسباني للمدن الساحلية الجزائرية:**

إن انقسام المغرب الإسلامي إلى إمارات ضعيفة متطاحنة فيما بينها جعلها تكون هدفا سهل المنال لدول وممالك أوروبا وعلى رأسهم المملكة الإسبانية التي تشجعت لاحتلاله مستغلة في ذلك الظروف التي كانت تعيشها بلاد المغرب الإسلامي عموما والمملكة الزيانية خصوصا.

لقد بدأت إسبانيا في الزحف نحو الشمال الإفريقي فوضعوا أيديهم على جزر الكناريعام ١٤٧٩ وقد قدمت هذه الجزر خدمة جليلة للإسبان حيث استخدموها كمحطات برية لسفنهم، وقد زادت رغبتهم في التوسع بعد القضاء على الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبرية،فكانت بداية رحلتهم في تنصير المسلمين والقضاء على المورسكين الفارين من الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين عام ١٤٩٢، فقرارهم جاء خوفا من عذاب الإسبان، حيث كانوا يستغيثون بإخوانهم في المغرب الإسلامي خاصة المغرب الأوسط الذي كان حصنا منيعا يلجأ إليه المهاجرون الأندلسيون.

**احتلال المرسى الكبير ١٥٠٥:**

باشرت المملكة الإسبانية في احتلال سواحل المغرب الأوسط واعتبرت ذلك امتدادا للحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين التي بدأتها في الأندلس لذلك جهزت الحملة من طرف الملك فرديناند وكلف الكاردينال خيمينيس بتجهيز حملة عسكرية ضخمة فقام بتجهيز الأسطول البحري من ماله الخاص إضافة

إلى حصوله على مساعدات الكنيسة بأموالها ومباركتها للحملة. سار الأسطول بقيادة "دون رايمون دي قرطبة" قائدا عاما للحملة الإسبانية على السواحل الجزائرية من مالقة في ٢٩ أوت ١٥٠٥ ووضع تحت تصرفه جيش قدر بـ: ٥ آلاف جندي ولم يصل الأسطول إلى المرسى إلى غاية ١١ سبتمبر ١٥٠٥ بعد أن توقف في المريةبسبب الرياح القوية كان هذا التأخر لصالح الإسبان لأن الكثير من المقاتلين الأهالي الذين جاؤوا من أجل حمايته والدفاع عن المرسى تفرقوا بعد أن طال انتظارهم ظانين بأن الإسبان قد تراجعوا من مهاجمة الميناء تاركين وراءهم حامية قدرت بـ: ٥٠٠ رجل وكلت إليها مهمة الاستطلاع والمراقبة.

عند وصول الأسطول الإسباني اشتبك مع الحامية الزيانية في المرسى الكبير في معركة غير متكافئة من حيث العدة والعتاد وانتهت باحتلال القلعة والتحصن بها لمدة ثلاثةأيامبعد استشهاد قائدها فلم يتمكنوا من رد الهجوم رغم استبسالهم.

بعد احتلال الإسبان للمرسى الكبير فرضوا سيطرتهم على المدينة فقاموا بتحويل مسجد المدينة إلى كنيسة "القديس مخائيل" وقاموا بترميم الأسوار التي تضررت من قذائف المدفعية، وأقاموا علاقات مع الأهالي، وفتحوا أسواقا تجارية بجانب المدينة من أجل تزويد حاميتهم العسكرية بالمؤونة.

وبهذا يكون احتلال المرسى الكبير مكسبا بالنسبة للإسبان فهو ميناء ممتاز يتميز بموقع استراتيجي وحصانة طبيعية، فهو محمي من الرياح والأعاصير وقريب من الشواطئ الإسبانية، ترسو فيه مئات السفن والمراكب الحربية بسهولة لذلك اتخذه الإسبان بوابة لاحتلال موانئ أخرى ومدن ساحلية

ذات أهمية استراتيجية كمدينة وهران التي زحف إليها الإسبان انطلاقا من المرسى الكبير.

**احتلال مدينة وهران ١٥٠٩:**

لقد كثف الإسبان نشاطهم من أجل إنجاح مشروعهم الاستعماري في شمال إفريقيا لذلك أرسلوا حملة ضخمة لاحتلال مدينة وهرانعام ١٥٠٩ بجيش تعداده ١٥ ألف جندي، أقلته ٣٣ باخرة حربية و٥١ زورقا صغيرا إلى سواحل وهران بقيادة بيدرونافارو، وقد نجح في اقتحام أسوار مدينة وهران بكل سهولة دون معاناة وكان ذلك بمساعدة يهودي خائن يعرف باسم شطورا الذي كان يعمل قابضا للضرائب بالمدينة، فقام بفتح لهم أبواب المدينة رفقة أعوانه وهما خائنان يعملان تحت إدارته وهما عيسى العربي وابن القانص حيث تمكنوا من فتح أحد أبواب المدينة المحاصرة للجنود الإسبان فتمكنوا من التوغل داخلها كالسيل الجارف وهم يقتلون كل من يقف أمامهم فارتكب الإسبان بذلك مذابح رهيبة أشرف على تنفيذها الكاردينال خمينيسXimeniesالمعروف بعصبيته الشديدة وحقده الدفين على الإسلام والمسلمين فقتل حوالي أربعة آلاف شخص وأسر ثمانية آلاف من المسلمين أخذوا جميعا إلى إسبانيا كما قام بتحويل العديد من المساجد إلى كنائس.

غادر خمينيسوهران وترك بها حامية تتولى حمايتها وحماية المرسى الكبير وتم تعيين "دون ديجو" قائد عام على مدينة وهران والمرسى الكبير، ومنه أصبحت وهران مركزا للنشاط الإسباني في الشمال الإفريقي حيث قاموا بشن غارات على القبائل المحيطة بالمدينة فتمكنوا من إخضاعها، كما قام الملك الزياني أبا حمو الثالث بإعلان تبعيته للإسبان وتعهد لهم بدفع جزية سنوية

قدرت بـ اثني عشر ألف (١٢ ألف) دوقة ذهبية و١٢ فرسا من جياد الخيل و٦ من طيور الباز الجارحة.

لم تكن الخيانة هي السبب الوحيد الذي أدى إلى احتلال وهران فلقد كان لقوة الجيش الإسباني وتفوقه العددي دورا كبيرا في إخضاع مدينة وهران والمرسى الكبير فبعد هذا النجاح الباهر فتحت شهية الإسبان للتوسع على حساب المناطق الغربية للجزائر كما أعلنت بعضها تبعيتها لإسبانيا عام ١٥١١ مثل مدينة دلس ومستغانم وشرشال، وقد دفعها إلى ذلك الظروف، حيث انحازت إليها بعض القبائل المتعاونة التي ضعف إيمانها فباعت وطنها خوفا من بطش الإسبان خاصة بعد أن تأكدت بأنها عاجزة عن المقاومة والوقوف في وجه العدو.

ولما أدرك الإسبان الأهمية الاستراتيجية لمدينة وهران قاموا بتحصينها تحصينا محكما مكنها من الثبات أمام جميع محاولات تحريرها لذلك جاء تأخر فتحها حتى عام ١٧٩٢ زمن عثمان باشا الكبير الذي تمكن من طرد الإسبان من المنطقة.

**احتلال بجاية ١٥١٠:**

أخذ الإسبان يتوسعون على المدن الساحلية الشرقية بدءا بمدينة بجاية التي كانت تخضع للأمير الحفصي عبد الرحمان وابن أخيه عبد الله، توجه الأسطول الإسباني على متنه ١٠ آلاف جندي بقيادة بيدرونافارو إلى بجاية التي وصلها يوم ٥ جانفي ١٥١٠، حيث نشبت معركة بين أهالي منطقة بجاية بمساعدة بعض الحاميات الحفصية ضد الاحتلال الإسباني ونظرا لقلة العدة والعتاد في صفوف أهالي بجاية فإن المعركة كانت لصالح الإسبان الأمر الذي

أدى إلى انسحاب العديد من المقاتلين كان على رأسهم الملك الحفصي.

لقد دخل الإسبان مدينة بجاية عنوة ووصل إليها أسطولها المكون من ٢٠ سفينة تحمل ١٠٠٠٠ مقاتل، وتمكنوا من إنزال قواتهم إلى البر وتم مراقبة المدينة حتى لا تصل إليها النجدات. دخل الطرفان في معركة لم يكتب لها النجاح وقاموا بالتقتيل والتنكيل راح ضحيتها أزيد من ٤ آلاف شخص، كما أمعنوا في نهب المدينة وتخريبها حيث نقلوا جميع ما فيها من تحف ونفائس إلى إسبانيا في ثلاثين مركبا غرق أكثرها في الطريق وهدموا منار قصر اللؤلؤ وقصر الكوكب ومسجد الجامع الأعظم، وسارع عدد من الموانئ إلى قبول الخضوع للسيادة الإسبانية ودفع الجزية مثل تنس ودلس وشرشال ومستغانم.

بعد نجاح الإسبان في احتلال مدينة بجاية التي جعلوا منها قاعدة عسكرية لاحتلال مدن ساحلية أخرى توجهوا أيضا في نفس السنة إلى مدينة عنابة وتمكنوا منها دون مقاومة تذكر فقاموا بسلبها ونهبها وانتهاك للحرمات وترك حامية لحراستها، كما عرفت نفس المصير كل من مدينة القل وسكيكدة.

**الجزائر توقع على معاهدة الاستسلام ١٥١٠:**

بعد احتلال مدينة بجاية وبعض المدن الساحلية شعر سكان مدينة الجزائر بالخوف والخطر لذلك سارع أعيانها إلى تشكيل وفد برئاسة شيخها سالم التومي إلى بجاية التي جعلها بيدرونافارو مركز قيادته فأبرم معه صلحا. وفيه اعترفوا بالسيادة الإسبانية، ومن شروط المعاهدة:

- الخضوع للنفوذ الإسباني بعد عقد سلام بين مدينة الجزائر والإسبان.
- إطلاق سراح الأسرى المسيحيين.
- عدم التعرض للسفن الإسبانية في البحر المتوسط.

– دفع ضريبة باهضة.

لم تقف أطماع إسبانيا عند هذا الحد بل تم تسليم لإسبانيا إحدى أكبر الجزر الصخرية بالساحل الجزائري وهي عبارة عن صخرة مواجهة لميناء الجزائر عرفت باسم حصن البنيون وتم وضع فيه حاميتهم العسكرية والمدفعية من أجل بسط نفوذهم في البحر المتوسط ومراقبة الصادرات والواردات في ميناء الجزائر، فأصبحت إسبانيا شوكة في جنب الجزائر تهددها.

بعد أن احتل الإسبان كل من المرسى الكبير ووهران وبجاية تخوفت بعض المدن الساحلية من بطش الإسبان فأعلنت تبعيتها وخضوعها لها سنة ١٥١١ مثل تنس، دلس، شرشال. وبهذا يكون الإسبان قد أحكموا سيطرتهم على سواحل الجزائر الشرقية والغربية، كما استغلوا النزاعات الداخلية وفرضوا حمايتهم على سلطان تلمسان سنة ١٥١٢ حيث عقدت الإمارة الزيانية معاهدة صلح مع إسبانيا واعترفت فيها بسلطة إسبانيا على موانئ سواحل إفريقيا الشمالية وقد التزمت هذه المدن تقديم ولاء الطاعة ودفع ضريبة سنوية.

ومن هنا نقول بأن الإسبان تمكنوا من احتلال بعض المناطق الساحلية من الجزائر وساعدهم في ذلك الظروف الداخلية التي كانت تعيشها المنطقة مثل تطاحن حكام المملكة الزيانية والضعف والتمزق وعجز القوة العسكرية في مقاومة الاحتلال وغيرها من العوامل التي تضافرت وكانت لصالح المملكة الإسبانية دون تحرك أمراء بني زيان. هذا إن دل على شيء إنما يدل على ضعف قوتهم وسلطتهم المركزية فغابت مظاهر دولة قوية موحدة، وأمام هذا الوضع الأسيف لم يجد سكان الجزائر من وسيلة سوى الاستنجاد بالدولة العثمانية نظرا للروابط الدينية المشتركة بينهم.